ملامح من التاريخ الثقافي
لدرعة من خلال كتب المناقب

للمرحوم محمد الماكري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

قبل الحديث عن ملامح التاريخ الثقافي لمنطقة درعة من خلال هذه النصوص، لا بأس من التذكير بأ ن الكلام في التاريخ الثقافي يلزم بالضرورة تناول ثلاثة فروع أو ثلاثة مسارات في التأريخ (إذا أخذنا بمفهوم الثقافة بمعناه العام)، فهناك:

- الثقافة العالمة (موضوع المداخلة)
- ثقافة الصنائعي والحرفي؛
- الثقافة المحلية المسماة الشعبية؛

لماذا النصوص المناقبية موضوعا لهذه المداخلة؟

نعلم جميعا أن لكل إنتاج نصي أو شكل إنتاج نصي خصوصيات معينة. والحال أن النص المناقبي يعتبر بالنسبة للمؤرخ شبه وثيقة قابلة للاستثمار، إما لاستخلاص معلومات تاريخية أو لمناقشة وتحديد أسماء أعلام أماكن أو أشخاص أو ما شابه ذلك من أشكال الاستثمار، وقد يكون أيضا موضوع إنجاز نقدي يدخل في باب نقد النص المناقبي لأسباب سنذكر بعضها. وتكمن خصوصية النص المناقبي في كون عنصر القداسة أو الصلاح هو العنصر المهيمن أو الموجه لمقصديات إنتاجه وتأليفه. من هنا فإن أي استثمار لهذا النص لا بد أن يكون محفوفا بالكثير من المشاكل الناجمة عن طابع الإنزياح الناتج بدوره عن البعد الخوارقي أو العجائبي الذي يتضمنه النص المناقبي. ومن هنا يلزم التمييز بين أشكال نصية تتقاطع فيما بينها كنصوص التراجم أو النصوص المتصلة بالوفيات أو النصوص المناقبية، فموضوعها شبه مشترك لكنها تتفاوت من حيث علاقتها من جهة بما هو واقعي وقابل للتحقق منه

تاريخيا، وما هو أساطيري أو عجائبي يصعب التحقق منه من جهة ثانية. لهذا فإن النص المناقبي يستلزم من ناقده ومستثمره أن يكون واعيا بهذه المسألة.

أما بالنسبة لدرعة فما يثير الانتباه هو أن للنص الدرعي أو المتناول لشخصيات أو أعلام الدرعيين خصوصيات معينة ناتجة أساسا عن مسألة التراجع والامتداد بين ظاهرتين: الظاهرة العلمية والظاهرة التقديسية. ففي حالات معينة يمتد الصلاح وينتشر ويهيمن فيها ليتقلص في حالات أخرى لفائدة ما هو "علمي" أو ما هو تاريخي محض. ومن هنا، فعندما نتحدث عن التاريخ الثقافي العام لمنطقة درعة نستحضر فترات تاريخية محددة وأمكنة محددة أيضا، شكلت زمانيا ومكانيا نقاط تمركز لهذا النشاط الفكري، فمثلا يمكن الحديث عن القرن العاشر والقرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر للهجرة باعتبارها التمركزات الزمانية لهذا النشاط . كما يمكن الحديث عن عناصر مكانية تعتبر تمركزات فضائية لهذا النشاط (المراكز ذات البعد الصوفي أو الديني) وهنا مصدر الإشكال حينما يتعلق الأمر بالنص المناقبي : لماذا هذا الاشكال؟ لأن التأريخ للثقافة يستلزم تناول كل المظاهر بما فيها المظهر الصوفي الشيء الذي من شأنه التشويش حينما نكون بصدد تأريخ سليم يتغيى أو يترصد ما هو ثقافي، ما هو علمي وفكري خاص، ومن نتائج التشويش أننا لا نعرف اليوم هذه الأمكنة والأعلام على حقيقتها باعتبار أن ظاهرة الصلاح أو التقديس كانت غالبة في الكثير من النصوص التي تناولتها مما نتج عنه أن العامة وحتى المهتمين من المثقفين يرصدون فقط هذا الجانب من حياة هؤلاء، إذ تنتج حول كل قطب أو حول كل علم - اذا تجاوزنا المصطلح الصوفي - الكثير من الحكايات والخوارق والكرامات تغطي الجانب الذي يهمنا وهو التاريخ العلمي. ومن هنا يمكن أن يفيدنا النص المناقبي من أجل إنجاز أرضية لتأريخ المنطقة:

- عبر عملية جرد لأسماء الأعلام ترتبط بالأماكن، بالمدارس، بالزوايا وبالرباطات.

- عبر استخلاص مجموعة من المعطيات الأخرى كالرحلات العلمية أو الرحلات ذات الطابع الديني كالحج.

كما يمكنها أن تفيد لإعطاء نظرة عن المتون المدروسة أو المؤلفات المكتوبة، وعن طبيعة الأسانيد والشيوخ والأساتذة وكذا أصحاب الأوراد والطرق الصوفية، ،أخيرا عن التلاميذ من الوافدين أو من المحليين، هذا إضافة الى عناصر أخرى كالمراسلات والفتاوي والأجوبة، العلوم والصنائع، ثم الطباع حينما يتعلق الأمر بعلم بعينه، وطرق التلقين، ثم معطيات عامة تهم التاريخ وتهم الأسطورة، لنتدرج نحو ثنائيات مهيمنة في النص المناقبي هي:

- العلم/ الصلاح
- العالم الأستاذ/ القطب الصوفي
- الزاوية/ المدرسة العلمية

أمام هذا الواقع، فان كثيرا من كتب التراجم التي تناولت أعلام الدرعيين كثيرا ما تستنسخ الخطاب المناقبي فتتضمن عناصر من شأنها أن تشوش على الباحث في هذا المجال، ولكن لا غنى عنها لأنها المصادر الوحيدة التي يمكنها أن تمكننا من هذا التاريخ. فمثلا إذا تناولنا عمل "الدوحة" لابن عسكر، أو "الفهرست" للسجلماسي، أو "الدرر" للناصري سنجد أن الأمر يتعلق بمؤلفات تفيد في التراجم ولكنها تقدم في الوقت ذاته نصوصا مناقبية. فعندما نتحدث مثلا عن أعلام محددين مثل محمد بن المهدي، فان الجانب المرتبط بنشاطه الفكري أو العلمي يتقلص ليفسح المجال لهامش من الكرامات والحكايات الأساطيرية المرتبطة بشخصه، والحال أن البحث في شخصية هذا العالم الفذ سيثبت بالملموس أن الأمر كان يتعلق بعالم مشارك لا أقل ولا أكثر، أي أن البعد الصوفي أو البعد القدسي غير وارد في شخصيته ولكن كتب التراجم والمناقب أضفته عليه، والشيء نفسه يقال عن أبي القاسم بن عمر التسنوتي، المعروف بأبي القاسم الشيخ الذي سيتقلص بعد العلم في شخصيته لصالح بعد أخر استمر حتى بعد وفاته ونعاين بعض مظاهره اليوم (وجود قبره في موضعين مختلفين)، والشيء نفسه بالنسبة لعبد الله بن محمد العنابي الذي يتقلص البعد الفكري والعلمي في شخصيته لصالح البعد الأساطيري خصوصا فيما يتعلق بقدراته الخارقة على تحويل المعادن من خسيسة الى نفيسة وما شابه ذلك. وحينما يكون هذا هو واقع الحديث عن الأشخاص في التراجم التي يصير لها بعد مناقبي فان ذلك سينسحب بالضرورة على الأمكنة بحيث سنتحدث عن زاوية

لا بفمفهوم الزاوية - الرباط العلمي ولكن الزاوية المرتبطة بطريقة أو بكرامات أو بقدرات معينة مما يجعل منها مزارا ذا طبيعة قدسية، ولعل المثال الصارخ في هذا الباب هو المرتبط بالقطب الناصري.

اذا كان هناك تشويش بالنسبة للتأريخ الثقافي لدرعة تحديدا أو بالنسبة لهذا الشخص ولمجموع المحيط الذي نشط حوله وكان بؤرته ولده الخليفة أحمد بن ناصر، فان الأمر يعود بالأساس إلى طغيان هذا البعد الأسطيري في الحديث عن الشخصية، مما أكسب الموقع قداسة غطت باقي الجوانب. إذن، أمام هذا الواقع (واقع التشويش الذي طرقنا بعضا من نماذجه) كيف يمكننا الاستفادة من هذه النصوص المناقبية لإنجاز تاريخ ثقافي للمنطقة؟ الحال أن لا خيار أمام الباحث في هذا الباب لأن كتب التراجم والوفيات والكتب المسماة مناقبية أصلا تشترك في تقديم نفس الخاصية النصية: حضور البعد الخوارقي. ومن هنا يكون الباحث ملزما بنقد النص المناقبي أولا - كما هو الشأن بالنسبة للمؤرخ مع وثيقته - وملزما أيضا بتنظيم عمله على مثل هذه النصوص ثانيا. وهذا لا يلغي إمكانية اعتماد النص المناقبي على علاته للبحث في بعد آخر هو البعد الإبداعي فيه إذ يتعلق الأمر بشكل من أشكال الإعداد النصي التي يفتح فيها الخيال لنفسه هامشا لإنتاج حديث عن عوالم ممكنة تنفصل عن العوالم الواقعية، وهذا الباب من الدراسة يهم المتأدبين أكثر مما يهم مؤرخي الثقافة.

إذن كيف يمكن تجاوز هذا المشكل؟ لدينا مجموعة قرائن تحفل بها مثل هذه النصوص، وهي قرائن نصية يمكن التأكد من صحتها، منها مثلا ما ارتبط بتسميات المكتبات والمجموعات الخاصة، ومنها ما يرتبط بأزمنة ومواقع تاريخية محددة. من هنا فان صيغة التأريخ المكنة انطلاقا من استثمار النص المناقبي - خصوصا اذا علمنا أن تأليف الدرعيين في النصوص المناقبية يسير إذا قيس بما نجده في مواقع أخرى ولكن حضور الدرعيين في كتب المناقب الأخرى خصوصا السوسية منها حضور وفير جدا - يتمثل أولا في بناء خريطة ثقافية نتبين من خلالها موقع المركز بالنسبة للفضاء الدرعي وكذا امتداداته شمالا: حيث مواقع التلقين أو الأخذ مثلا في منطقة سجلماسة (أغريس) وفي فاس، غربا: سوس، جنوبا: شنقيط، شرقا: تونس.

إذن تمثل سوس بالنسبة للدرعيين مصدرا للأعلام، إذ أن أغلب الأعلام الدرعيين إما وافدون من جزولة واستقروا بدرعة لمدة طويلة وهناك كان عطاؤهم مثل محمد المهدي الجراري الذي تحدثنا عنه والذي يشكل أكبر نموذج للمثقف الدرعي، والشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للتامكروتيين ولنماذج أخرى كثيرة. فسوس تمثل مجال الوفادة كما تمثل مجالا للإنتشار أو لإعادة المد الثقافي إذ أن الكثير من علماء سوس أخذوا من درعة ومن مراكزها العلمية المعروفة. أما حالة فاس فحالة فريدة، فقليلون هم العلماء الدرعيون الذين أخذوا بشكل مباشر عن مشايخ فاس ولكن الكثير منهم انتدبوا للتدريس في الحاضرة الفاسية والشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة لأغريس ولكن هذه المرة بطريقة عكسية بحيث تتلمذ الدرعيون في فركلي وفي سجلماسة ولكن قليلا منهم درس بها. وبالنسبة لتونس (وهذا موضوع يستدعي وقوفا من لدن الباحثين) يعتبر المشايخ التونسيون من الأسانيد الرئيسيين للكثير من علماء درعة. وبالنسبة للمشرق هناك علاقة خاصة حيث ورد على محمد بن المهدي الجراري عدد مهم من المشارقة طالبين منه الإجازة. وقد كانت علاقة الدرعيين بالمشرق في الغالب علاقة تتلمذ غير مباشر إذ أن قليلا من مشايخ درعة توفرت لهم شروط السفر والتجوال في حواضر الشرق، في الشام ومصر والعراق الحجاز.

ومن الأعلام الذين يمكن الاستفادة من حضورهم بالحواضر الدرعية من أجل وضع هذا التاريخ انطلاقا من هذه النصوص أقتصر على ذكر ثلاثة هم: حسن بن مسعود اليوسي الذي يشكل حضوره في حاضرة تامكروت مؤشرا يمكن استثماره في هذا البعد التأريخي، ثم أحمد بابا التمبوكتي في عبوره للمجال، وكذلك أبو سالم العياشي.

هناك إذن واقع يجعلنا نلاحظ أن درعة قد أنتجت في فترات محددة من حياتها ما يمكن أن نسميه مدرسة فكرية خالصة هي حصيلة إفادات لمجال واسع يشكل الامتداد الطبيعي لها في سوس وسجلماسة وشنقيط والسودان الغربي والشرق، وستكون في فترة أخرى مجال عطاء إذ سنجد أن كثيرا من أعلام المغرب قد تتلمذوا في درعة.